دور محمد البشير الإبراهيمي في الدفاع عن اللغة العربية في الجزائر من خلال مؤلفاته – بين المحافظة والإحياء –

the role of AL-Ibrahimi in Defending the Arabic language in Algeria through his writings between concervation and revival.e

علي حميداتو * محمد عطا الله **

تاريخ تقديم البحث **2017/12/15** تاريخ القبول **2018/01/23**

ملخص

يتناول هذا المقال قراءة فيخطاباتأحد أقطاب الجزائر الذي ارتبط اسمه باللغة العربية، وهو خطاب البشير الإبراهيمي، و الذي سنحاول من خلاله أن نبين مواطن اهتمامه باللغة العربية ،وبالضبط في تلك الفترة التي كان الاستعمار يحاول فيها طمس هوية الجزائريين ومن أهمها الدين واللغة فكان عمل الإبراهيمي هذا مشتملا على إحياء اللغة وبعثها من جديد ومحاولة تقديم الجديد في الساحة اللغوية والأدبية عامة.

الكلمات الدالة: خطاب – لغة – إحياء - آدب

Abstract

This article deals with a reading of the discourses of one of the poles of Algeria, whose name is associated with the Arabic language, the speech of Al-Bashir Al-Ibrahimi, through which we try to show his interest in the Arabic language, and precisely in that period when colonialism was trying to obliterate the Algerian identity, especialy religion and language This work of El-Brahimi includes reviving the language and resurrecting it again and trying to present what is new in language and literature in general.

Keyboard: discourse – language – revival – literature.

*جامعة البليدة2 الجزائر ،.

** جامعة البليدة2 الجزائر ،.

تمهيد :الشيخ محمد البشير الإبراهيمي .

مولده ونشأته :

كتب الشيخ سيرته بطلب من مجمع اللغة العربية بالقاهرة، عندما انتخب عضوا عاملا فيه سنة 1961م، وسنعمل هنا على الأخذ من تلك السيرة بالقدر الذي نحتاجه، وما يتماشى ومتطلبات بحثنا؛ وهو محاولة التعريف بمن هو محمد البشير الإبراهيمي باختصار.*

يقول الإبراهيمي عن نفسه:" أنا محمد البشير الإبراهيمي ولدت يوم الخميس عند طلوع الشمس في الرابع عشر من شهر شوال سنة ست وثلاثمائة وألف، ويوافق الثالث عشر من يونيو سنة 1889م ". ووالده هو محمد السعدي طالب الإبراهيمي.

وهو من قبيلة تعرف بأولاد إبراهيم بن يحي بن مساهل، ويرفع نسب هذه القبيلة إلى إدريس بن عبد الله الجد الأول للأشراف الأدارسة، وبيته أحد البيوتات التي حفظت رسم العلم وتوارثته.

ويقول عن نفسه في ذلك :" نشأت في بيت والدي كما ينشأ أبناء بيوت العلم، فبدأت في التعلم وحفظ القرآن الكريم في الثالثة من عمري على التقليد المتّبع في بيتنا... فلما بلغت سبع سنين استلمني عمي من معلمي القرآن وتولى تربيتي وتعليمي بنفسه ... فلما بلغت تسع سنين من عمري حتى كدت أحفظ القرآن مع فهم مفرداته وغريبه ...".

وقد اعتنى به عمه " محمد المكي " عناية فائقة، وفتح له أبوابًا كثيرةً في العلم، فحفظ قدرًا كبيرًا من متون اللغة، وعددًا من دواوين فحول الشعراء، ووقف على علوم البلاغة والفقه والأصول، ولما مات عمه تصدَّر " البشير الإبراهيمي " لتدريس ما تلقاه لزملائه في الدراسة، وكان عمره حينئذ أربعة عشر عامًا.[1]

" في سنة 1911م استدعي لأداء الخدمة العسكرية الإجبارية في الجيش الفرنسي، فغادر الجزائر متخفيا ليلتحق بأبيه الذي هرب من الظلم الاستعماري واستقر بالمدينة المنورة منذ 1908م "[2].

وهو في طريقه إلى المدينة المنورة مكث بالقاهرة مدة ثلاثة أشهر؛ إذ كانت فترة قصيرة، ولكن حضر فيها حلقات العلم بالأزهر الشريف،وكان ممن حضر لهم:" سليم البشرى " ،

و"محمد نجيب المطيعي " سمع له صحيح البخاري، و" يوسف الدجوي " في البلاغة، و" سعيد الموجي" دروسه في الموطأ، وزار دار الدعوة والإرشاد التي أسسها " رشيد رضا "، كما التقى في مصر بالشاعرين الكبيرين " أحمد شوقي " و" حافظ إبراهيم " .

وفي المدينة المنوّرة استكمل " محمد البشير الإبراهيمي " العلم في حلقات الحرم النبوي، واتصل بعالمين كبيرين كان لهما أعظم الأثر في توجيهه وإرشاده ، أما الأول فهو" عبد العزيز " الوزير التونسي، الذي أخذ عنه (موطأ الإمام مالك)، ولزم دروسه في الفقه المالكي، وأما الثاني فهو " حسين أحمد الفيض آبادي الهندي "، الذي أخذ عنه شرح صحيح مسلم، ومن شيوخه في المدينة المنورة أيضا " محمد عبد الله زيدان الشنقيطي " وقد أخذ عنه أنساب العرب وآدبهم الجاهلية، والسيرة النبوية، وكذلك " عبد الباقي الأفغاني " وقد أخذ عنه علم المنطق.

وفي أثناء إقامته بالمدينة المنوّرة التقى بـ " عبد الحميد بن باديس "، الذي كان قد قدم لأداء فريضة الحج سنة 1913 م، وقد ربطت بينهما المودّة ووحدة الهدف برباط وثيق، وأخذا يتطلّعان لوضع خطة تبعث الحياة في الأمة الإسلامية بالجزائر، وانضم إليهما " الطيب العقبي"؛ وهو عالم جزائري سبقهما في الهجرة إلى المدينة، والتقى الثلاثة في أيام متصلة ومناقشات جادة حول وضع الجزائر وسبل النهوض بها، فوضعوا الأسس الأولى لإنشاء "جمعية العلماء المسلمين الجزائريين" .

وفي سنة 1916 م غادر " محمد البشير الإبراهيمي " المدينة المنوّرة إلى دمشق، وفيها عمل مدرسا في مدرسة السلطانية _ وهي المدرسة الثانوية الوحيدة آنذاك _، كما ألقى دروسًا في الجامعالأموي، وشارك في تأسيس المجمع العلمي الذي كان من غاياته تعريب الإدارات الحكومية.

رسالته في الجزائر:

عاد محمد البشير الإبراهيمي إلى بلده الجزائر سنة 1920م، وبعودته أنهى مرحلة التعلم والأخذ لينتقل إلى مرحلة العطاء، عاد الإبراهيمي وقد اختمرت في ذهنه فكرة الإصلاح، تلك الفكرة التي كانت قد انتشرت في المشرق منذ نهاية القرن 19م، وكانت موضوع اجتماعاته مع عبد الحميد بن باديس ومسامراتهما الليلية في المدينة المنورة على امتداد ثلاثة أشهر.

وكان ابن باديس قد شرع في تنفيذ الفكرة التي عزم عليها مع محمد البشير الإبراهيمي، الشيء الذي دفع الأخير بعد العودة مباشرة إلى الانطلاق في الدعوة والتعليم في مساجد قسنطينة التي استقر فيها، وقد سرّه ما رآه من بداية لنهضة إسلامية في الجزائر.

ومؤازرة لهذا السعي شرع الإبراهيمي في حركة علمية وإصلاحية واسعة؛ إذ أخذ يعقد الندوات العلمية للطلبة، والدروس العلمية للجماعات القليلة، ثم الدروس المنظمة للتلاميذ الملازمين، كما أخذ يلقي المحاضرات ودروس الوعظ والإرشاد متنقلا من بلدة لأخرى، ثم أنشأ مدرسة صغيرة بمدينة قسنطينة يمرّن فيها الشباب على الخطابة والكتابة وقيادة الجماهير بعد تزويدهم بالعلم اللاّزم.

وكانت في تلك الفترة اتصالات وزيارات بينه وبين رفيقه في الجهاد والإصلاح عبد الحميد بن باديس، كان أهمها زيارة قام بها ابن باديس للإبراهيمي في سطيف واتفقا في إثرها على تأسيس جمعية الإخاء العلمي، ليواصلا العمل على إخراج جمعية العلماء من حيّز القول إلى حيّز الفعل، وفي 05 ماي 1931م كان الميلاد الفعلي لجمعية العلماء، فانتخب ابن باديس رئيسا والإبراهيمي نائبا عنه، وكلف الإبراهيمي بوضع لائحة داخلية لشرح أعمالها، وتبيين أهدافها فكتبها في مائة وسبع وأربعين مادة، وتلاها على الحاضرين فأعجبوا بها.

وتقاسم أقطاب الحركة الإصلاحيةالمسؤولية في المقاطعات الجزائرية الثلاثة، وتولى " البشير الإبراهيمي " مسؤولية (تلمسان) العاصمة العلمية في الغرب الجزائري، بينما اختص " عبد الحميد بن باديس " بالإشراف علىمقاطعة (قسنطينة)بما تضم من القرى والمدن، واختص " الطيب العقبي " بالإشراف علىمقاطعة (الجزائر).

وقد بلغت الجمعية من النشاط والنجاح والتفاف الناس من حولها، ما ولّد إحساسا بالتحدي لدى سلطات الاستعمار من طرف الجمعية، وأصدر رئيس وزراء حكومة المستعمر قرارا يقضي بنفي الإبراهيمي إلى آفلو بالصحراء الوهرانية الجزائرية وكان ذلك في العاشر من مارس سنة 1940م، وما مر إلاّ القليل من فترة منفاه حتى خبّر عن موت ابن بادريس _ عليه رحمة الله _.

واختار العلماء الشيخ الإبراهيمي رئيسًا لـ "جمعية العلماءالمسلمين الجزائريين"،وقد لبث الشيخ " البشير الإبراهيمي " في منفاه ثلاث سنوات، ثم خُلي عنه بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية سنة 1943 م .

وبعدخروجه من المنفى أعاد الشيخ " البشير الإبراهيمي " نشاط الجمعية في بناءالمساجد وتأسيس المدارس، وإصدار جريدة " البصائر" في سلسلتها الثانية بعد أن توقفتأثناءالحرب، وتولى رئاسة تحريرها، وكانت مقالاته الافتتاحية فيها نسيجًا فريدًا مننوعهفي النبض العربي الإسلامي.

وقد عاد البشير الإبراهيمي إلىوطنه عند استقلال الجزائر، بعد أن كان غادره سنة 1952م وذلك من أجل التعريف بالقضية الجزائرية في العالم العربي، وتحقيق مصالح الجمعية، وكذا من أجل البحث عن منح للطلبة الجزائريين بالخارج، وكانت القاهرة هي محل استقراره،وبعد العودة خطب أول صلاة جمعة من مسجد (كتشاوة) بالعاصمة (الجزائر)، وكان هذا المسجدقدحوّله الاستعمار الفرنسي إلى كنيسة بعد احتلاله للجزائر.

ثم لزم محمد البشير الإبراهيمي بيته ولم يشارك فيالحياةالعامة بعد أن كبر سنه وضعفت صحته، وأثقلتهالسنون،وأوهنه المرض، حتى توفي - رحمه اللّه – يوم 19 ماي 1965 م، بعد حياة حافلة بجلائل الأعمال ، فخرجت الأمةتودعهبقلوب حزينة وأعين دامعة، تعبيرًا عن تقديرها لرجل من رجالات الإصلاح فيها،وأحدبناة نهضتها الحديثة.

آثاره ومؤلفاته:

لم يتسع وقت الإبراهيمي للتأليف والكتابة؛ وذلك للأعمال الكبيرة والمسؤوليات التي كانت على كاهله، ومع ذلك فقد ساهم بالكتابة في موضوعات مفيدة، ولكن لم يساعده لا الفراغ ولا وجود المطابع على طبعها، وقد بقيت كلها مسودات في مكتبته بالجزائر.

كما قد سعى ابنه " أحمد طالب الإبراهيمي " بعد وفاة محمد البشير الإبراهيمي إلى جمع آثاره رفقة تلامذة والده، وطبعها في أجزاء تحت عنوان: (آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي)، فصدر الجزء الأول منها سنة 1978 م، ثم صدر الجزء الثالث سنة 1981م، ثم صدر الجزء الرابع سنة 1985 م، أما الجزء الخامس فقد صدر سنة 1994 م، في حين مثل الجزء الثالث كتاب (عيون البصائر).

ولكن ابنه " أحمد طالب الإبراهيمي " كان يعمل باستمرار على تنقيح هذه الآثار وعلى ترتيبها وفق تسلسلها الزمني، من خلال البحث عن المخطوطات المفقودة لمحمد البشير الإبراهيمي، سواء عند زملاء والده وأصدقائه في داخل الجزائر أو خارجها، أو عند تلامذته وبخاصة أولئك الذين شاركوا في حرب التحرير الجزائرية.

وإلى جانب هذا، فإن لمحمد البشير الإبراهيمي مؤلفات وكتابات أخرى غير تلك الآثار، منها:

* الملحمة الرجزية في التاريخ: وتبلغ ستا وثلاثين ألف بيت شعري، تتضمن تاريخ الإسلام والجزائر، ووصفا لكثير من الفِرق التي نشأت في عصر محمد البشير الإبراهيمي، ووصفا للاستعمار الفرنسي ومكائده ودسائسه.
* النقابات والنفايات في لغة العرب: جمع فيه كل ما جاء على وزن (فِعالة) من مختار الشيء ومرذوله.
* التسمية بالمصدر.
* بقايا فصيح العربية في اللهجة العامية في الجزائر: والتزم فيها اللهجة السائدة إذ ذاك في مواطن هلال بن عامر.
* الاطراد والشذوذ في العربية .
* رسالة في: في الفرق بين لفظ المطرد والكثير عند ابن مالك.
* ما أخلت به كتب الأمثال من الأمثال السائرة.
* رسالة في: ترجيح أن الأصل في بناء الكلمات العربية ثلاثة أحرف لا اثنان.
* أسرار الضمائر العربية .
* الصفات التي جاءت على وزن "فُعَل".
* نظام العربية في موازين كلماتها.
* رواية كاهنة الأوراس.
* رسالة في: مخارج الحروف وصفاتها بين العربية الفصيحة والعامية.
* شعب الإيمان (في الأخلاق والفضائل).
* حكمة مشروعية الزكاة في الإسلام.
* فتاوى متناثرة.

وهناك عدة محاضرات وأبحاث كتبها عنه تلامذته في حين إلقائها وهي كثيرة، وربما من بين أهم المقالات التي كتبها محمد البشير الإبراهيمي؛ ما جمع في كتاب " عيون البصائر" والذي يمثل الصورة النموذجية لما كتبه الإبراهيمي.

عيون البصائر:

هي مجموعة من المقالات الافتتاحية التي كتبها محمد البشير الإبراهيمي في السلسلة الثانية من جريدة البصائر، وجمعت فيما بعد في كتاب واحد هو " عيون البصائر "؛ إذ أن جمعية العلماء أصدرت جريدة البصائر في سلسلتها الثانية سنة 1947م، وهي صحيفة جامعة تعبر عن الاتجاه الإصلاحي السلفي الذي تتبناه الجمعية، وهي تتناول مواضيع ثقافية وعلمية وأدبية وسياسية وغالبا ما يحمل كل عدد منها افتتاحية بقلم رئيس تحريرها وصاحب امتيازها محمد البشير الإبراهيمي الذي هو في الوقت نفسه رئيس جمعية العلماء، ووصفت بأنها كانت محل إعجاب في المشرق والمغرب لتنوع مواضيعها ورقي أسلوبها.[3]

وكان محمد البشير الإبراهيمي يثير في افتتاحيات البصائر قضايا ذات بعد كبير مثل قضية فصل الدين عن الدولة، والعدالة تحت الاستعمار، وعلاقة الطرق الصوفية بالإدارة الفرنسية، كما اهتمت البصائر بالتعريف بالتراث والمدن والعلاقة الحضارية مع الشرق، والمواسم الدينية والتراجم التي تذكر الأمة بأمجادها وتاريخها.

وبعض قيمة تلك المقالات أنها أرادت تأكيد معنى أساسي كان أبرز المعاني الجوهرية في حركة الإصلاح وفي حركة الثورة، ذلك هو الرجوع إلى الأصالة، بالدفاع عن دين الجزائر ولغتها وشخصيتها، وتثبيت ذلك في نفوس الأجيال الجزائرية التي كانت في المعركة، أو التي كانت في النضال؛ أي التي كانت تخوض المعركة ضد الاستعمار والتي كانت تتأهب لخوضها.[4]

وفي تلك الفترة أو المرحلة التي كتبت فيها المقالات ارتبط نسق التفكير عند محمد البشير الإبراهيمي بهموم الواقع؛ إذ صارت كتاباته نسقا بأبعاد واقعية، تستحيل فيها تجربته الفكرية إلى معين دلالي وحضاري يبلور به المشكلات، ويكشف به عن مسوغات القهر والانحطاط التي لحقت بالجزائر وبالمسلمين من حولها، كالحرب العالمية الثانية مثلا.

لذلك اتسمت المقالات التي كتبها محمد البشير الإبراهيمي بميزات خاصة، منها:[5]

1- المنهجية الدقيقة والعرض المنطقي.
2- الجمع بين جمال الصياغة والتعبير عن الفكرة.
3- الرساليَّة.
4- السخرية الحادَّة واللهجة العنيفة عند المناقشة.
5- ظاهرة الاقتباس والتضمين.

وعليه فالخطاب الفكري والمعرفي في تلك المقالات يبدو متميزا بمجددات اتجه فيها صاحبها إلى اكتناه عناصر الصراع ومدى تجسدها في الحاضر، والموضوعات التي كتبها محمد البشير الإبراهيمي في تلك المرحلة _ فترة كتابة المقالات _ مؤشر لقدرته على تتبع الأحداث والوقائع وقراءتها قراءة عميقة.[6]

ويمثل المجال الإصلاحي حوالي 44% من مجموع موضوعات مقالات محمد البشير الإبراهيمي،* والسبب في العناية بهذه الموضوعات هو الأوضاع التي كان يعيشها المجتمع الجزائري في عصره، والرسالة التي كان يحملها هو لإنقاذ بلاده.

وكتابات محمد البشير الإبراهيمي الإصلاحية متنوعة تشمل مختلف مجالات الحياة؛ منها ما يتعلق بمجال الدين، ومنها ما يتعلق بقضايا أخرى أساسية في عملية الإصلاح، كقضية التعليم والتربية وقضية بناء مستقبل الأمة وغيرها، " ومن خصائص تلك الكتابات الإصلاحية، التفكير الموضوعي المنهجي الواضح، والتحليل المنطقي المقنع، والعنف في مواجهة الخصم، والحكمة في إبلاغ الوعظ والنصيحة "[7].

وبنيات الفكر الإصلاحي عند محمد البشير الإبراهيمي جيدة، لما تحمله من سمات منهجية ومعرفية أجلها الاجتهاد السني الذي أسس به _ مع مجموعة من العلماء _ لفكر إصلاحي إسلامي، يمكنه أن يخوض في مشكلات الواقع بوعي موصول بالإسلام، كما حاول أن يلامس المشكلات الإسلامية بجرأة كبيرة، سواء أكانت مشكلات فقهية أو فكرية أو فلسفية أو سلوكية.[8]

وقد اعتمد محمد البشير الإبراهيمي في مقالاته المنهج التجديدي العقلي الاستدلالي، وذلك في مقارعة الحجة القائمة على التحليل، والعرض الاستنباطي، وقد ابتعد عن المنهج الخطابي الجدلي العقيم، وإنّه لمنهج فريد في فلسفة المعنى، " ولعل أبرز ما يستوقف الدارس في طريقة المحاججة والمحاورة... هو استنادها إلى منطق استخراج الحجة من مقدمات الخصم، مع أنها خاطئة في أساسها "[9].

أمّا سر إبداع محمد البشير الإبراهيمي فيكمن في هذا التركيز الشديد على الاختيار أولا ثم الاستيعاب والتأمل والتذوق ثانيا، وعلى هذه الطريقة الصعبة التي أخذ بها نفسه منذ الصغر وهي بناء قاعدة صلبة من المعارف اللغوية والأدبية والتاريخية.[10]

وقد بلغ الأمر ببعض الدارسين إلى تسمية مقالات محمد البشير الإبراهيمي التي جمعت في كتاب " عيون البصائر " بأنها مدرسة، وقد اتسمت هذه المدرسة _ أي عيون البصائر _ بمميزات ومعطيات عدة، يمكن حصرها فيما يلي:

1- كَوْن مدرسة [عيون البصائر] تمثل طرازا ثقافيا فريدا في أدبه وفنه، يمثل حلقة وصل بين التراث العربي القديم في بلاغته وسجعه ورجزه وشعره، وبين المقالة الأدبية المعاصرة الملتزمة بالتجديد في المبنى والمعنى؛ من حيث التقيد بأسلوب التحليل، وطريقة الاستنباط ومنهجية الإقناع بالحجة والدليل.

2- إن محمد البشير الإبراهيمي بـ[عيون البصائر] قد مثل الثقافة الموسوعية، التي تأخذ من كل جانب بنصيب، فهي تجمع بين الأدب والفقه والفلسفة والتاريخ وفي الإعلام، في قالب من النثر أو السجع أو الرجز أو الشعر.

3- تمثل [عيون البصائر] أحد أهم مرجعيات تاريخ المقاومة الثقافية والسياسية في الجزائر خصوصا، وفي الوطن العربي والأمة الإسلامية بوجه عام، ففي كل مقالة من مقالاتها تذكير بما كان يحدث على جميع الأصعدة السياسية والثقافية والدينية في جميع الأوطان العربية أو الإسلامية.

4- الربط المحكم في هذه المدرسة بين الأصالة ومتطلباتها اللغوية، والعقدية والوطنية، والحضارية، والاعتماد على هذه الأصالة في مقاومة الظلم والغزو، والاستعمار بجميع ضروبه وأشكاله.

5- الموضوعية العلمية في عرض الوقائع، والوقوف على ما هو إيجابي منها، وما هو سلبي، ثم عرضه بعد ذلك على ميزان المنطق والقناعة والإنتماء.

6- الكشف عن معجم لغوي وسياسي خاص في أسلوب محمد البشير الإبراهيمي، مما يساعد قارئه على تفتق الذهن، وتوسيع مدركات العقل، وتقعيد المفاهيم.[11]

6- قراءة لبعض ما جاء في مؤلفاته:

يعنون البشير الإبراهيمي مقالا له بـ " اللغة العربية في الجزائر عقلية حرة لبس لها ضرة "، مستفتحا مقاله قائلا:" اللغة العربية في القطر الجزائري ليست غريبة ولا دخيلة؛ بل هي في دارها، وبين حماتها وأنصارها، وهي ممتدة الجذور مع الماضي، مشتدة الأواخي مع الحاضر، طويلة الأفنان في المستقبل... "[12].

ويقول في موطن آخر:" هذه العروبة الأصيلة العريقة في هذا الوطن، هي التي صيّرته وطنا واحدا، لم تفرّقه إلا السياسة..."[13] ذلك في سياق كلامه عن « عروبة الشمال الإفريقي » كما هو عنوان المقال.

في تعليقه على لجنة " فرانس – إسلام " يقول معاقا عن كيفية تركيب كلمتين لا يمكن لهما التركيب، مستندا في ذلك إلى أنواع التركيب في اللغة العربية، وأن هذا التركيب " فرانس – إسلام " لم يجد له نوعا يمكن إدراجه ضمنه، بقول في ذلك:" كلمتان أكرهتا على الجوار في اللفظ والكتابة، فجاءت كل واحدة منهما ناشزة على صاحبتها نابية عن موضعها منها، لأنهما وقعتا في تركيب لا تعرفه العربية، ولا يقبله الذوق العربي.

في العربية تركيب الإسناد، والإسلام لا يرضى أن يسند إلى فرنسا الاستعمارية، ولا أن تسند هي إليه، وفي العربية التركيب الإضافي، والإسلام لا يسمح أن يضاف إلى فرنسا، ولا تضاف هي إليه، وفي العربية التركيب الوصفي، والإسلام لا يقبل أن يصف بالفرنسي ولا أن توصف فرنسا بـ « الإسلامية »، وفي العربية التركيب المزجي، والإسلام وفرنسا كالزيت والماء لا يمتزجان إلا في لحظة التحريك العنيف، ثم يعود كل منها إلى سنته من المباينة والمنافرة "[14].

كما عمل الإبراهيمي على التخريجات اللغوية واعتماد معناها في كلامه، من مثل ذلك قوله:" أن الموالاة مفاعلة أصلها الولاء أو الولاية، وتمسها في معناها مادة التولي... وهي في الاستعمال الشرعي جارية على استعمالها اللغوي وهو – في جملته – ضدّ العداوة، لأن العرب قول وَالَيْتُ أو عاديت، وفلان ولي أو عدوّ، وبنو فلان أولياء أو أعداء، وعلى هذا المعنى تدور تصرفات الكلمة في الاستعمالين الشرعي واللغوي "[15].

مثل ذلك قوله:" الجائر الثائرة لأنه وصف صادق على الجائر، مطابق لحالتا الذاتية الدائمة بمعنييه اللغويين، فهي ثائرة بالصفة المشتقة من الثرة وهي ثائرة بالفهم المشتق من الثأر، والعرب يقولون لكل خارج على مألوف عرفي هو ثائر، كما يقولون لطالب الثأر وللآخذ به ثائر، مع اختلاف المادتين في أصل المعنى، لأن من بدائع لغتهم تلاقي المادتين المختلفتين على الوصف مثل: سال وسأل يلتقيان في سائل، وثار وثأر يلتقيان في ثائر "[16].

قراءة الإبراهيمي لشعر أحمد شوقي وكلامه عنه في أكثر من موضع يدلل على اهتمامه بالشعر خاصة الهادف منه، فلقد ذهب إلى قراءة شعر شوقي تحت عنوان " الدين في شعر شوقي "[17] واستخلص وخلص إلى العديد من النتائج المتعلقة بشعر شوقي والمرتبطة بالدين واللغة والفكر، وهي قراءة توحي بذوق الإبراهيمي الراقي وتمكن اللغوي وقدرته على القراءة الصائبة والاستنباط الحكيم.

يقول الإبراهيمي*:

فإن شئتموا أن تسمعوني محاضرا أحاضركم عن حضرة الغوث والقطب
هنالك يدري الجاهلون حقيقتي ويهتز ناديكم ويعرف ما خطبي
وإن سكوتي مسحة مستعارة من (المدفع) الصخاب والصارم الشطب
* ***

أنا المرء لا أعطي إلى القطب مقودي ولو دفعتني الحادثات إلى القطب[18]

الإبراهيمي في هذه الأبيات وكأن به يعارض المتنبي في قوله:

أنا الذي نضر الأعمى إلى أدبي وأسمعت كلماتي من به صمم

رغم معارضة الإبراهيمي إلا أنه لم يتناول الجاني القتالي كما عند المتنبي، وإنما الكلام عن الخطابة والفصاحة .

ومثلها فعل الإبراهيمي في الرسالة – سماها العزيمة** - التي بعث بها إلى الشيخ " العربي التبسي " سنة 1941 لما كان في منفاه بـ " أفلو " بالجنوب الوهراني، وقد كتبها على طريقة " اليقَّاشِين ". يقول " الحسن البغدادي القادري " الذي قدّم لهذه " العزيمة " – أي الرسالة -، والشخأملها عنه هو في زيارة له في المنفى، يقول:" أنشئت هذه « العزيمة » على طريقة مشاهير« اليقَّاشِين » المعروفين من طلبة علم الجدول والأوقاف، وأصحاب التمائم والعزائم، للتحكم في أمر الجانّ، وإخراج العفريت من جسد الإنسان، والتغلب عليه لتصريفه في كل شان، بأسماء القهر والزجر للاذعان، وتذليله بكل ما يُرعب ويُخيف، من كل أمر سخيف، وكل شرير خبيث، في العالم القديم والحديث "[19].

وقد كتب الشيخ الإبراهيمي هذه العزيمة – الرسالة – بلغة عربية فصيحة رزينة، وبأسلوب هزلي مرح، أدى من خلاله الغرض المطلوب وأحيى جنسا أدبيا كان مفقودا.

كتب الإبراهيمي روايته الشعرية " رواية الثلاثة "***، وهو جنس أدبي غير معروف أبدع فيه الإبراهيمي، وما يميز هذا العمل هو اللغة التي كتب بها والأسلوب، فقد أورد فيها الكثير من الكلمات الغريبة القليلة الاستعمال وقصد ذلك إحياءه لها، ودفعا لاستعمالها، وتميزت رواية الثلاثة بالأسلوب الذي كتبت به، أسلوبا أدبيا رصينا متماسكا مترابط البنية والتراكيب لا غرابة فيه، واضح سهل ممتنع، يوحي بتمكن الإبراهيمي من اللغة العربية واستعمالها؛ بل هو مبدع في استعمال اللغة وابتكار أساليب جديدة في الكتابة الأدبية.

والإبراهيمي من خلال " رواية الثلاثة " سعى إلى التجديد في الأجناس الأدبية المألوفة عند الجميع، وأضاف الجديد إلى ساحة الإبداع الأدبي، هذا إضافة إلى حفاظه على المعنى والغرض الذي من أجله كتب، مع أنه يبدو من خلال توقيت كتابتها أن الإبراهيمي كان يتسلى بكتابتها، وذلك لأنه كان في منفاه بأفلو سنة 1941.

يقول الإبراهيمي مقدما لهذه الرواية:" هذه – أكرمك الله – رواية الثلاثة، وهي أرجوزة أكثرها « لزوم ما لا يلزم » تمثل حالة ثلاثة من الأساتذة، لا يُدفعون عن فضل ولا أدب ولا ذكاء وما فيهم إلا بعيد الأثر في الحركة الإصلاحية، واسع الخطى في ميدان تعليم الناشئة وتربيتها... وكان لهم شيخ يقارضونه... الثلاثة هم: الشيخ السعيد بن حافظ مدير مدرسة التربية والتعليم الحرة بقسنطينة، والأستاذان: عبد الحفيظ الجنان، ومحمد بم العابد (الجلالي)، المعلمان بها، وشيخهم هو مؤلف الرواية "[20].

7- خصائص نثر الإبراهيمي من خلال مقاله " العربية: فضلها على العلم والمدنية، وأثرها في الأمم غير العربية "[21]:

1/- أن موضوع المقالة موضع تاريخي في الأصل، يتحدث فيه عن اللغة العربية وأصلها، وأصل نشأتها، يقول:" وإن هذا الموضوع الذي سامني الأستاذ الكتابة فيه موضوع علمي تاريخي "[22].

2/- أنه عمد إلى كتابتها كتابة أدبية رصينة قوامها الخيال إلى جانب الحقيقة التاريخية ورمى من خلاله الإبراهيمي إلى وضع روح اللغة العربية في نفوس سامعيها قصد إثارة الحماسة فيهم، قوله:" لذلك كله سلكت في الكتابة مسلكا أدبيا يستمد من الخيال أكثر مما يستمد من الحقيقة ويعتمد على الخطابة أكثر مما يعتمد على البرهان، ويرمي إلى إلهاب الحماس في نفوسكم أكر مما يرمي إلى تقرير الحقائق فيها"[23].

3/- أن أصل اللغة العربية هو السامية، وهي ضاربة في القدم.

4/- أن اللغة العربية ظهرت في شبه جيرة العرب، وهو ما تماشى مع محاسن الفطرة في الجيرة.

5/- أن اللغة العربية ترجمان صادق لكثير من الحضارات المتعاقبة التي شاهدها العرب بجيرتهم.

6/- تتميز اللغة العربية عن غيرها من لغات العالم بـ " الاتساع في التعبير عن الوجدانيات، والوجدان أساس الحضارات والعلوم كلها "[24].

7/- " أن العربية قامت وحدها ببناء حضارة شامخة البنيان، ولم تستعر من اللغات الأخرى إلا قليلا من المفردات "[25]وهو ما لم تستطع أن تقوم به لغة أخرى غير العربية لوحدها ما لم تساندها لغات أخرى.

8/- أن العربية لسان حضارة إسلامية لا تبيد، ومدنية مبنية على حكم الله وآداب النبوة.[26]

9/- " لو لم تكن اللغة العربية لغة مدنية وعمران، ولو لم تكن لغة متسعة الآفاق غنية بالمفردات والتراكيب، لما استطاع أسلافكم أن ينقلوا إليها علوم اليونان وآداب فارس والهند..."[27].

10/- " لو لم تكن اللغة العربية لغة عالمية لما وسعت علوم العالم، وما العالم إذ ذاك إلا هذه الأمم التي نقل عنها المسلمون. قامت العربية في أقل من نصف قرن بترجمة علوم هذه الأمم ونظمها الاجتماعية وآدابها فوعت الفلسفة بجميع فروعها، والرياضيات بجميع أصنافها، والطب والهندسة والآداب والاجتماع "[28].

11/- أن اللغة العربية لم تخدم مدنية خاصة أو أمة خاصة دون غيرها، وإنما خدمت كل الأمم، كما لم تخدم علما دون آخر، فقد خدمت الدين كما خدمت الطب وغيرهما من العلوم الأخرى[29].

هوامش البحث

---

[*]- تم جمع هذه المعلومات حول حياة الشيخ " الإبراهيمي " نقلا عن: البشير الإبراهيمي ،آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي ، جمع وتقديم نجله الدكتور أحمد طالب الإبراهيمي ، دارالغرب الإسلامي ، بيروت ، لبنان ، الطبعة 01 ، 1997 ، مقدمة الجزء الأول .

[1]- ينظر: بشير كاشهالفرحي، محمد البشير الإبراهيمي شيخ العلماء وفارس البيان، دار الآفاق، الجزائر، (د ط)، (د ت)، ص 22، 23.

[2]- سعيد بورناد،شخصيات بارزة في كفاح الجزائر (1830– 1962)، دار الأمل، تيزي وزو، ط2، 2004،ص 131.

[3]- ينظر: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي (1954– 1962)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ج10، ط1، 2007، ص 197.

[4]- ينظر: البشير الإبراهيمي ،آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي ، جمع وتقديم: الدكتور أحمد طالب الإبراهيمي ، دارالغرب الإسلامي ، بيروت ، لبنان ، ط1، ج3، 1997 ص 37.

[5]- ينظر: عبد الملك بومنجل، النثر الفني عند البشير الإبراهيمي، بيت الحكمة، الجزائر، ط1، 2009، ص 37.

[6]- ينظر: عمر أحمد بوقرورة، بناء النسق الفكري عند محمد البشير الإبراهيمي _ قراءة في ظل البنية والمتغير _، دار الهدى، الجزائر، (د ط)، (د ت)، ص 71.

[*]- اعتمدت هذه النسبة بناءا على دراسة قام بها عبد الحميد بوزوينة، راجع ذلك في كتابه: بناء الأسلوب في المقالة عند الإبراهيمي، ص 10.

[7]- عبد الملك بومنجل، مرجع سابق، ص 80.

[8] - ينظر: عمر أحمد بوقرورة، مرجع سابق، 37.

[9]- عبد الرزاق قسوم، محمد البشير الإبراهيمي مهندس لفظ... وفيلسوف معنى (دراسة)، مجلة الموافقات، الجزائر، ع 4، السنة الرابع، 1995م، ص 431.

[10]- ينظر: محمد ناصر، الشيخ محمد البشير الإبراهيمي من خلال نثره الفني (دراسة)، المرجع نفسه، ص 446.

[11]- ينظر: عبد الرزاق قسوم، مرجع سابق، ص 440 ، 441.

[12]- الآثار، ج3، ص 206.

[13]- الآثار، ج3، ص 429.

[14]- الآثار، ج3، ص 350.

[15]- الآثار، ج5، ص 68.

[16]- الآثار، ج5، ص 236.

[17]- لقراءة ذلك والاطلاع يرجى الرجوع إلى الآثار، ج5، ص 201- 209.

[*] - من قصيدة للأستاذ الإبراهيمي، نشرت بجريدة البصائر، السنة الأولى، العدد 43، 13 نوفمبر 1936.

[18] - الآثار، ج1، ص 288.

[**] - لقراءة هذه الرسالة والإطلاع عليها يراجع: الآثار، ج2، ص (103 ـ 107).

[19] - الآثار، ج2، ص 103.

[***] - كتب الإبراهيمي رواية الثلاثة بأفلو منفاه سنة 1941، بعد أن انقطعت عنه رسائل تلاميذ الثلاثة وحرم من مراسلاتهم، وهم: الشيخ سعيد بن حافظ، والأستاذ: عبد الحفيظ الجنان، والأستاذ: محمد بن العابد (الجلالي)، وشيخهم هو كاتب الرواية البشير الإبراهيمي. لقراءة الرواية والإطلاع عليها، يرجع إلى : الآثار، ج2، ص (59 ـ 102).

[20] - الآثار، ج2، ص 59، 60.

[21]- راجع: الآثار، ج1، ص 373 – 380.

[22]- الآثار، ج1، ص 373.

[23]- الآثار، ج1، ص 373.

[24]- الآثار، ج1، ص 374.

[25]- الآثار، ج1، ص 374.

[26]- ينظر: الآثار، ج1، ص 375.

[27]- الآثار، ج1، ص 376.

[28]- الآثار، ج1، ص 376.

[29]- ينظر: الآثار، ج1، ص 378، 379.